كتاب
تاريخ بيروت

لمحمد بن صالح (تابع لما سبق)

خبر اعتقال الملك الظاهر بيبرس لامراء بني الغرب

(قلتُ) ويجب ان نذكر توطئةً يُستدَلّ بها على كيفيّة سجن الثلثة المذكورين. وذلك انَّ الملك الظاهر كانت تتأمّت آمالهُ بفتوح السواحل وصار يتوقّع لسماع اخبار التزنج والاطلاع على احوالهم وكشف طبقاتهم

(قلتُ) وفي ايّام سلطنتهِ كُتب منشور جمال الدّين حجي المؤرّخ ثامن رجب سنة تسع وخمسين وستمائة (١٢٦١) بحُكم ملازمتهِ للخدمة الشريفة مع بدر الدين بن رحّال (١ وقد تقدّم ذكر هذا المنشور (٢ . (قلتُ) وربّما كان بدر الدين هذا جعلوهُ في قُبالة فرنج صيداء وبيروت مثاغرًا لهم .

ثمّ نذكر المكاتبتين اللتين ارسلهما جمال الدين آقوش النجيبي نائب الشام الى زين الدين المذكور والى جمال الدين حجي ولم يُذكَر لهما تاريخ سوى ايّام الشهر الذي كُتبتا فيهِ ولم تُذكر السنة . وكذا كانت المراسيم في ذلك الوقت فيُقال : « كُتب في كذا وكذا من الشهر الفلاني المبارك » . ولم تُذكَر السنة وانّما كانوا يذكرون السنين في المناشير والتواقيع

ومضمون احدى المكاتبتين : « وصلت مكاتبة الاميرين الاعزّين الاخصّين جمال الدين وزين الدين عمادَي الملوك (٥٧٥) والسلاطين ادام الله تأييدهما وعلمنا ما ذكراهُ وشكرنا همّتهما . واما مثاغرتهما وقيامُهما بما ينبغي من الخدمة فنحن نعلم ذلك منهما ونحرّضهما على القيام بما هما بصددهِ ومطالعتنا على اخبار العدوّ المخذول في كلّ وقتٍ بحسبهِ . واما الامير حُسام الدين نوار (٣ فقد كتبنا اليهِ بانّهُ متى وقع صوتٌ يُسرع مع جماعتهِ الى جهتكما

---

١) لم نطّلع على شيء من اخباره ٢) راجع ص ٥١٦

٣) يظهر من قرينة الكلام انّهُ كان احد عمّال ملوك الاتراك المصريين في ساحل الشام

فتّفق كلمتُهُ وكلمتكما. والكتاب عطفها (١ فتوصلانه اليه. واما قضيّة صاحب بيروت وتزوّج ابنته بملك قبرس (٢ فقد علمناهُ ولنا علم ايضاً في حديث الهُدنة ومخالفتها. ونعم ما فعلاهُ باطلاعنا على هذا فلا يقطعا اخبارهما مؤيّدَين (اه)

ومضمون الكتابة الاخرى: «وردت مكاتبة الاميرين الاجلّين الاعزّين الأخصّين المحترمين المجاهدين الغازيين جمال الدين وزين الدين بهاءي الاسلام مجدَي الامراء عدّتي الملوك والسلاطين أنجح الله قصدهما وأسعد جدّهما وكبتَ ضدّهما ووقف عليها وعلم مضمونها وعرف ما هما عليه من الاجتهاد والناصحة وهو المعهود منهما والمشهود عنهما. فليُطيّب الاميران أيدهما الله قلبيهما وليشرحا صدريهما فهما على ما يشتهيان ويؤثران وما بلغنا عنهما الّا الخير ولا قيل عنهما الّا الجميل. وليس ثَمَّ ما يضيق بهِ صدرهما ولم نسمع في حقّهما الّا كلاماً طيّباً فليستمرّا على ما هما عليهِ من المناصحة والاجتهاد والمطالعة بالاخبار ومساعدة العسكر المنصور والغُزاة (٣ بتلك الجهة. وليجريا على ما عُهد منهما من المناصحة ومن سلفهما في الأيام السالفة عند الدُّوَل المتقدّمة فانهما يجنيان ثمرة ذلك والله يؤيّدهما بالتوفيق»

وفيهِ ملحق: «قد بلغنا ان جموعكما قد تفرّقت وانتما تعلمان انّ في هذا الوقت تظهر مناصحة الدين والدولة القاهرة. فليتقدّم الاميران أيدهما الله برد الرجال الى جهة صيداء وليجتهدا في المساعدة على حفظ هذا الثغر مؤيّدَين ان شاء الله تعالى»

ورأيتُ مرسوم الملك الظاهر بيبرس الى زين الدين المذكور وجمال الدين حجي يدلُّ على انهُ ارسلهُ اليهما من مصر مضمونهُ: «هذه المكاتبة الى الاميرين المختارَين المحترمَين الاخصّين المجاهدين جمال الدين وزين الدين فخرَي القبائل والعشائر مجدَي الامراء اختيارَي الدولة عميدي الملوك والسلاطين ادام الله رفعتهما وجدّد مسرّتهما. تتضمّن سلامنا عليهما واهداء تحيّتنا اليهما وتعلمهما بانّا وقفنا على مكاتبتهما الواصلة الى نوّابنا بدمشق يذكران فيها استمرارهما على الخدمة والنصح لدولتنا القاهرة. ووصل الينا كتاب نوّابنا بدمشق المحروسة يذكرون ما عليهِ الاميران من الخدمة والاجتهاد في المناصحة وفرحنا بذلك ووقع عندنا اهتمام الاميرين في الخدمة احسن موقع فليستمرّا على ذلك وليهتمّا بهِ وليطيّبا قلبهما

١) يريد انهُ أودع في ضمن هذه المكاتبة رسالةً ليبلّغاها الى حسام الدين المذكور
٢) راجع ص ٥١٢

وليشرحا صدرهما فسوف يجنيان واخاهما ثمرة (٢١ ز) خدمتهما وصحبتهما وايطالعانا بالاخبار والتحذرات والله يوفقهما (انتهى)

(قلتُ) وهذا ممَّا يدلّ على انَّ الملك الظاهر كان قد صرف ذهنهُ الى جهة الفرنج وأنَّهُ كان محارباً لهم وانَّ خاطرهُ كان قد مال الى جهتي زين الدين وجمال الدين المذكورين ليتجسّسا لهُ اخبار الفرنج ويطالعاهُ بها وان يكونا مثاغرين على صيداء وبيروت مع من كان من جهة السلطان. ولهذا وقع عندهُ الكذب في حقهما بمرقع ارجب سجنهما

وذلك انَّهُ اشتهرت على ما اخبرنا السلف مُعاداة بني ابي الجيش لبني الغرب بالبغضة والحسد فتوجَّه احدهم بكتاب مزوَّر عن زين الدين وجمال الدين واخيهِ سعد الدين الى الإبرنش (١ صاحب طرابلس مضمونهُ ما يوافق غرض الإبرنش ويُغضب الملك الظاهر. فكتب الإبرنش جواب الكتاب بما يوجب وقوع الدرك على المذكورين عند وقوف السلطان عليهِ. فتحيَّل ابن ابي الجيش المذكور حتى بلَّغ الجواب المذكور الى الملك الظاهر يقصد بهِ اذيَّة امراء بني الغرب ليشفي خاطرهُ منهم

فعند ذلك طلب السلطان الثلاثة وهم زين الدين وجمال الدين حجي واخوهُ سعد الدين خضر وسجنهم مدَّةً طويلة لم اعلم كم هي. فمن قائل يقول سبع سنين ومن اكثر يقول تسع سنين. وكانوا قد فرقوا بينهم فجعلوا زين الدين بن عليّ في سجن مصر وجمال الدين حجي في الكرك واخاهُ سعد الدين خضر بقلعة عجلون

ووقفتُ على كتاب مُرسَل من عجلون يدلُّ على انَّ سعد الدين المذكور كان مسجونًا (٢٢ ز) بعجلون ثمَّ احضروا جمال الدين من الكرك وسعد الدين من عجلون وجمعوا الثلاثة في سجن مُقرَّمة وحكي أنَّهُ لمَّا قصدوا نقل سعد الدين من عجلون الى مصر استبشر بذلك فقالوا لهُ: انت ذاهب الى الخس من عجلون فلأيّ شيء تفرح. قال: افرح باجتماعي باعزّ الناس عليَّ واحبّهم اليَّ اخي وابن اخي (ستاتي البقية)

---

١) الابرنش معرَّبة عن اللفظة الافرنسيَّة (prince) بمعنى الامير. وكان البرنس المتولي في ذلك الزمان على طرابلس يدعى بوهيمند السادس وكان اميرًا على انطاكية وطرابلس معًا. وفي ايَّامهِ فتح الملك الظاهر بيبرس مدينة انطاكية سنة ١٢٦٧ م فبقيت لهُ طرابلس وحدها. وتوفي بوهيمند سنة ١٢٧٥ وفتحت طرابلس بعد ذلك بمدَّة سنة (١٢٨٨م) فتحها الملك المنصور قلاوون